

الأدب والسينما

للأستاذ دريني خشبة

استدرك أحد كرام القراء فنشر في الرسالة تعليقاً على مقال من صحفنا المتأخرة نقي فيه صلاحية السينما للأدب لا تقطاع العلاقة بينهما في زعمه ، وربما حدا به إلى هذا الرأي ما يظنه من أن الأدب إنما ينبغي أن يكون أسلوباً وتعبيراً كلامياً قبل أن يكون موضوعاً ، وإن لم يصرح بهذا في الكلمة التي نشرتها الرسالة له . والمجيب أن يأخذ الكثيرون بوجهة النظر هذه في العلاقة بين الأدب والسينما ، ولست أدري ماذا تكون الرواية السينمائية إن لم تكن أدباً يختلف في أدائه من الأدب المسرحي كما يختلف في أدائه أيضاً من أدب القصة . ومعظم المتأدبين العرب ممن لا يعرفون الآداب الأجنبية ينظرون إلى الأدب في هذه الحدود الضيقة التي لا تخرج به عن المقالة أو القصيدة أو العظة القصيرة أو الرسالة أو المقامة أو ما شابه ذلك مما تخويه كتب الأدب العربي ، وقد مضت قرون طويلة قبل أن تدخل القصة في أدبنا ، وإن تكن قد دخلته هذا الدخول المقدس من طريق القرآن الكريم والأحاديث القدسية وعن طريق رواية أخبار المتقدمين ، تلك الرواية التي هي إلى التاريخ أقرب منها إلى الأدب ؛ فلما دخلت القصة في الأدب العربي عن طريق الترجمة في العصر العباسي بكتاب كليله ودمنة ، ثم بكتاب ألف ليلة فيما بعد ، لم تحفل بها تلك الطبقة المثقفة التي كانت مشغولة بالعلوم الدينية ورواية أشعار العرب عن كل شيء والتي كانت بعد كل شيء غير العلوم الدينية ورواية أشعار العرب وكل ما يصح أن تؤيد به الكتاب والسنة من فلسفة أو أثر لنوى ، عبثاً لا طائل وراءه ولا خير فيه ، ولذلك فشا كتاب ألف ليلة بين العامة الجاهلة وانصرفت عنه الخاصة المستنيرة ، كما حبس كليله ودمنة على تأديب أبناء الملوك والخاصة من الوزراء ، فلم ينشر في دائرة واسعة من طبقة الأدباء التي كان يحتمل أن تقلد ما فيه أو تنشى على غرارها ، وتولى أدباء من المصريين والقارية تأليف قصص على نهج ما جاء في ألف

ليلة ، فغشردوا لها أساطير الجن والسحر ، وداعبوا بها الغرائز الجنسية ، مما يفتتن به غير العامة ، ويأنف من قراءته الخاصة ، ثم ألفت الملاحم العربية والمصرية على نحو المبالغة والتهويل كان سبباً في استعلاء الخاصة عنها كذلك . وهكذا ظل أدب القصة غريباً على الأدب العربي حتى عصرنا الحديث الذي ترجمت فيه بعض الروائع من قصص العرب فأظهرتنا على الفرق التاسع بين أدبنا والآداب الأوربية ... أدبنا القليل النور ... أدبنا المزق الذي لا تمسك أجزائه وحدة ، والآداب الأوربية العميقة المتناسكة ، ثم كان أن أقبل بعض كتابنا على تأليف القصص فتجسج منهم عدد غير قليل ، وإن كانت القصة الطويلة التي تضارع القصة الأوربية لم تدخل في أدبنا بعد ... على أن الرواية التمثيلية ظلت بمنأى عن الأدب العربي على الإطلاق ، إلا ما حاوله بعض أدبائنا المجتهدين إبان نهضتنا التمثيلية من تلك الدرامات الفجة المسجوعة السمجة التي كانت تؤذيها بعض فرقنا الإقليمية . ثم حاول بعض أدبائنا الجدد أن يقدروا المرح المحلي بقطع من إنتاجهم ، ولم يكادوا يفعلون حتى ثبط مهمهم بخس مديري الفرق لجهودهم وعدم تشجيع الحكومة لهم ، ولأن الحركة المسرحية المنظمة التي من همها خدمة اجتماعنا وخدمة لغتنا وآدابنا لم تخلق بعد . فأنصرف الأدباء عن التأليف المسرحي غير مأجورين ولا مشكورين ، بل انصرفوا والحسرة تملأ نفوسهم ، والغيظ يشق صراخهم . وهذا كله هو الذي حفزنا إلى الدعوة للأدب المسرحي ، والإهابة بكل من يستطيع مؤازرتنا أن يعضدنا في هذه الدعوة ، وأن يضم جهوده إلى جهودنا ، عسى أن تستيقظ وزارة المعارف وأن تنتبه وزارة الشؤون ، فعملنا أن النهضة المسرحية هي أساس كل نهضة اجتماعية ، وأنها تخدم لغتنا وأدبنا وثقافتنا بما لا يستطيع أن يخدمها به شيء آخر . ولما كانت السينما اليوم أكثر انتشاراً في مدننا من المسارح ، ولما كانت لهذا السبب أبعد خطراً في نفوس الجماهير منها وجب ألا تقل عنايتنا بها عن عنايتنا بالمسرح ، ووجب أن نلفت أنظار الأدباء إلى الإنتاج السينمائي بقدر ما نلفتهم إلى الإنتاج المسرحي ، لأثنا الغاية واحدة وإن اختلف الأداء ، ولأن الأديب وحده هو الذي يستطيع أن

الأسف أن يضطر الإنسان إلى تسجيل انصراف طبقة كبيرة من المصريين المثقفين المتأثرين عن شهود الروايات المصرية التي تعرض في دور السينما المختلفة . وذلك لما بلوه صراعاً من انحطاط موضوعاتها وضعف تأليفها ، وبعد الشقة بينها وبين الأفلام الأجنبية التي تغزو سوق السينما المصرية وتهد أموال المصريين نهباً تستحقه أحياناً ولا تستحق منه ملياً أحياناً كثيرة

والجيد من تلك الأفلام يفصح صناعة السينما في مصر بقدر ما يفصح المؤلفين المصريين . وهذا الجيد كثير جداً مع الأسف ، وهو يعرض علينا ألواناً رائعة من الأدب الأمريكي والأدب الإنجليزي والأدب الفرنسي والأدب الروسي ، ومن سائر الآداب العالمية التي اشتهرت بثروتها في القصص والدراما بقدر ما اشتهر الأدب العربي في هذه الناحية ، ذلك الفقر الذي علناه في صدر هذا المقال ، والذي لا يريد كبار أدبائنا إقناظنا منه وسر فضيحتنا فيه ولست أدري لماذا لا يتصل كبار أدبائنا بالسينما والتأليف السينمائي ؟ ولست أدري كذلك لماذا لا يتصل مدبرو الشركات السينمائية بهؤلاء الكتاب الكبار يفرونهم بالمال الوافر والثراء الجم والريح الكثير إذا هم كتبوا لهم قصصاً طريفة تمثل حياتنا وتصورنا التصوير الصادق الذي لا يعرف الشعب ولا يدنو من التهرب ولا يفضحنا بين الأمم . إن شركات كثيرة في مصر تستطيع أن تسيل لعاب أحسن كتابنا بخصماتة أو بألف من الجنيهات ثمناً لقصة يكتبها في شهر أو شهرين أو في ثلاثة أشهر ومن قصصنا الجاهزة عدد كبير يصلح جداً للعرض السينمائي ، وهو غنى بموضوعاته ، عظيم بأسلوبه ، ثم هو بمحالاته الرائعة يصور من الحياة المصرية ألواناً مختلفة صادقة بحيث يزدى بمئات من الروايات الأجنبية السمجة التي تضر عقائدنا ، وتفكك بأخلاقنا ، وتشيع في نفوس شبابنا الرخاوة والطرادة والاستخذاء . يجب أن يدرك كل أديب مصري وطأة استعباد الأفلام الأجنبية لنا ، ويجب أن يتعاون الأدباء مع الشركات في إقناظنا من نير الأدباء الأجانب الذين يفرضون ثقافتهم وأفكارهم علينا ، بكل ما في هذه الثقافة وتلك الأفكار من مزاي وأضرار ، والذين ينسخون أدبنا القومي الناصب بأدبهم الفتيه الناصبة إننا نحصى الصناعات المحلية

بمضطلع بتأليف القصة المحبوبة الشائفة التي هي الدين الأول للرواية السينمائية ، تلك القصة التي يتولى إعدادها (عمل السنايرو منها) للسينما فنان آخر غير المؤلف ، بحيث يكيفها تكييفاً لا يخرج بها عن الأصل قط وإن رتبها الترتيب السينمائي الذي لا بد منه لكمال هذه الصنعة ، فالقصة السينمائية من الوجهة الموضوعية أدب محض ، ثم هي أدب محض من حيث أسلوبها كذلك ؛ وهي ، وهم يشترطون أن يكون واضح السنايرو من القصة الأدبية أو الدراما السرحية للسينما أدبياً واسع الاطلاع له إلمام تام بأساليب الكتابة وأساليب الحوار على السواء ، كما ينبغي أن يكون قديراً في دراسة الأشخاص متبحراً لذلك في علم النفس ، بحيث يستطيع أن يفهم روح المؤلف الذي تعتبر القصة قطعة من نفسه وصراة لفنه . ولذلك ترى القصة التي تعد للسينما عملاً أدبياً صرفاً من كل وجوهه ، بل هو عمل أدبي يصدر أولاً عن روح المؤلف ، ثم يتعاون في إعدادها واضع السنايرو ثم المخرج ثم المصور ثم هذا الجيش العرمرم من العمال والمهندسين الذين يحسن ، بل يجب أن يكونوا ممن يفهمون الأدب ويسبقونه لأنهم شركاء في إنضاج هذه الثمرة الأخيرة التي تعرض على الشاشة البيضاء ، فإما أن تنجح كعمل أدبي وإما أن يفنى عليها بالفشل الذريع

فالمباعدة إذن بين الأدب وبين السينما وهم لا أصل له . . . ثم هو وهم أقصى من التأليف للسينما كبار كتابنا وأحسن قصاصينا ، وإلا فإذا كتب للسينما طه حسين ومحمود تيمور ولاشين ومحمود كامل ويوسف جوهر وتوفيق الحكيم ، ومن إليهم من الأدباء الشباب والأدباء الكهول على السواء ؟ لقد انصرف هؤلاء عن التأليف للسينما ، فكانت النتيجة أن وكلت شركات الصور إلى مؤلفي الدرجة الثانية كتابة قصصهم ، وكانت النتيجة أيضاً تلك الأشرطة المخزية بموضوعاتها وإخراجها وتبريجها . . . وغاب عن أئمة كتابنا أن أدب هذه الأشرطة هو الذي يمثل اليوم أدب القصة المصرية في الداخل والخارج أمام ملايين المتفرجين ، وهو تمثيل يضع أدب القصة المصرية السينمائية في الوحل ، وينشر ضدنا دعاوة سيئة بين شعوب شقيقة كانت قدردنا أحسن التقدير فاقمت إلى الوفاء لنا إن لم تكن السخرية بنا . ومما يدهو إلى

والأدباء الكبار يتركون للكتاب الصغار الذين لا يعرفون من فن القصة ولا فن الدراما شيئاً مهمة إمداد السينما المصرية الناشئة بقصصهم المريضة الهزيلة ، والشركات السينمائية مقصرة لأنها كانت تستطيع أن تفازل أدباءنا الكبار بشرط من أرباحها الوفيرة فينتجوا لها القصص الشائقة التي تضاعف مكاسبهم وترفع بمستوى الشريط المصرى الذى أصبح الشرق العربى كله يعتمد عليه فى تغذية جماهيره بهذا اللون الحبيب من ألوان التمتع الذهنية وأخشى ما أخشاه هو أن يكون أدباؤنا الكبار أيضاً ينظرون إلى السينما كشئ لا نصله بأدبهم الرفيع صلة ... تلك النظرة الفجة التى من أجلها كتبنا هذا المقال ... وأخشى ما أخشاه هو أن يكون الحال كذلك ، لأنهم جميعاً ، إذا استثنينا الدكتور هيكل ، لم يساهموا قط فى نهضة السينما المصرية مع أن معظم الذين جربوا كتابة القصة من هؤلاء الكتاب قادرون على تغذية السينما بالروائع التى ترتفع كثيراً إلى أفق الرواية السينمائية الأجنبية ، بل إن كثيراً من قصصهم التى انتهوا منها وقدموها للسوق الأدبية صالح للسينما المصرية ، وهو إن قدم للسينما يرتفع بها ويستر هذا الخزي المؤلم الذى يشيع فى الأشرطة المصرية بلا استثناء ... وإنه لمن المضحك بل إنه لمن البأس ألا تخرج شركاتنا المصرية قصة لأحد من كبار أدباؤنا أمثال المازنى وطه حسين ومحمود تيمور ومحمود كامل ولاشين وجوهى ومن إليهم ، فى حين أنها تنفق جهودها الكبيرة على هذه القصص الخائبة والروايات المخزية التعمسة التى تؤذى الأبصار وتمسح الرؤوس وتحط من سمعة الأدب المصرى فى كل مكان ، تعرض فيه على أقل الناس بصراً بالنقد الأدبى ومعرفة بفن القصة أو الدراما ... لقد آن أن ننظر إلى هذه القضية من ناحية الكرامة القومية أولاً ، ومن ناحيتها الاقتصادية ثانياً ... وقبل هذا وذاك ، ينبغى أن ننظر إليها من حيث علاقتها الوثيقة بالأدب وبالنهضة التمثيلية ... فالأشرطة السينمائية أدب صرف ، وهى المرأة الجديدة التى تطلع فيها على نقائصنا ومزايانا ، كما تطلع فيها جميع الأم على تلك النقائص وهذه الزايا ... ثم هى تصح أن تكون كتباً مصورة ناطقة حية يرانا فيها أحفادنا بعد مئات السنين ، فإما أن يقدموا جهودنا إذا رأوا شيئاً حسناً وإما

الناشئة بزيادة المكوس ، فلا أقل من أن نحصى إنتاجنا الأدبى بإهداء كبار الكتاب عندنا بالمساهمة فى التأليف السينمائى ، وإقناع الشركات المصرية بمضاعفة الأجور لمؤلفى الكتاب حتى يرفعوا مستوى القصة السينمائية ويجنبوها هذا الإسفاف الذى ينتهى إلى الرثاء والسخرية ، وانصراف الطبقة المستنيرة عن جهود الروايات المصرية ... على أن داعى الوطن واللغة والأدب كان ينبغى أن يقنع هؤلاء الكتاب وتلك الشركات بأن يسروا المسئلة بينهم فيخدموا الوطن واللغة والأدب مخلصين ، كما كان ينبغى أن ينظر إلى القضية من زاويتها الاقتصادية أيضاً ، إذ أصبح من أشد الجهل أن نغالى الدولة ونتماعى الأمة عن هذه الألوف الضخمة من الجنيهات التى تسلك سبيلها من جيوب المصريين إلى جيوب شركات السينما الأجنبية ، تلك الألوف من الجنيهات التى كان ينبغى أن يكون لأدباؤنا وشركاتنا كفل كبير منها إن لم يكن ينبغى أن يكون لهم معظمها ... إن معظم دور السينما فى القاهرة والألكندرية وفى كثير من مدن الأقاليم هى دور أجنبية ونحن نشهد تلك الجموع الزاخرة من عليقة المصريين التى تتردد على تلك الدور يومياً ، وبالرجوع إلى دفاتر ضريبة الملاحى نعلم أن متوسط دخل إحدى دور السينما بالقاهرة يرتفع مرات كثيرة إلى خمسمائة جنيه مصرى كل يوم أى إلى خمسة عشر ألفاً من الجنيهات شهرياً ، وفى القاهرة أربع من دور السينما يقرب إيرادها اليومى من هذا المستوى ، فإلى جيوب من تذهب هذه المبالغ الضخمة ؟ إنها تذهب إلى جيوب الأجانب ، وقل أن ينتفع المصريون منها إلا بأجور الخدم ! فأى هوان ينزل بالقومية المصرية والكرامة الوطنية بعد هذا الهوان ؟ هذا فى الوقت الذى يتضور فيه كثير من أحسن أدباؤنا جوعاً ... وفى الوقت الذى يهدد فيه كبار الممثلين بهجر المسارح ... من أجل أزمته المالية ... ونحن لا ننكر أننا المسؤولون قبل غيرنا عن هذه الكارثة ، والمسئولية موزعة على الدولة والأدباء والشركات ... فالدولة مقصرة لأنها تهمل المسرح المصرى على النحو الذى يبداء فى مقالاتنا الكثيرة السابقة ، والأدباء مقصرون لأنهم لا يساهمون فى التأليف القصصى والتأليف المسرحى ، وهما دعائم الإنتاج السينمائى ،